

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا راية عقيدتهم وإيمانهم أمام  
جبروت الكفر وطفيان الشرك ، فالتقاء فيهم فناء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخْلِفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل  
ما يملكون ، وفروا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أي مَقُومٍ  
من مَقُومات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المَقُومات ، بل  
يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ ۝ (١٠) ﴾ [الكهف] أي : رحمة من عندك ،  
أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مَقُومات الحياة ،  
فالرحمة في فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمة هنا لا تكون  
إلا من الله : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ (١١) ﴾ [الكهف] أي : يَسِّرْ لَنَا  
طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق  
الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن  
يُوسِّعَ عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ قُلُوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا  
نَضْرَعُوا ۖ ۝ (١٢) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَعْنَا عَلَيْهِمْ أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ ۖ

سِينِينَ عَدَدًا ۝ (١١) ﴾

يُقَالُ : ضَرَبَ القسطاط على الأرض يعني الخيمة ، أي : غَطَّيْتُ  
الأرض بها بعد أن كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشيء  
بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلا كان  
الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أَيَا هَازِلًا مِنْ صُتُوفِ الْقَدَرِ      بِنَفْسِكَ تُعَنَفُ لَا بِالْقَدَرِ  
وَيَا ضَارِبًا صَخْرَةً بِالْعَصَا      ضَرَبْتَ الْعَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الْحَجَرَ ؟

فمعنى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ .. ﴾ (١١) [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها : لأن الإنسان الذى يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إن تعب وأجهد العمل يقف بعض الوقت ليستريح ، فإن تعب من الوقوف فعد ، فإن تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإن لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففى النوم تهدأ الأعصاب ، ويستريح الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشيء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مكثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه - إذن - هو الضارب ، والمضروب هو الأذان ، والضرب على الأذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذى لا يُعَكِّرُ صَفْوَهُ شَيْءٌ ، والنوم هو الراحة التامة التى تطفى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إسماع تؤدى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [النحل]

هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان ، فلو وضعت أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش ؛ لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام ، أما لو صرخت في أذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تزدى مهمتها منذ ولادته . وكذلك فالأذن تعاقب أيضاً بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم .

وهؤلاء الفتية دخلوا وآووا إلى الكهف ، وهو فجوة في جبل في صحراء وهي غُرُوة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم ، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لازعجتهم هذه الأصوات وأقلقَتْ راحتهم ؛ لذلك عطَّل حاسة السمع عندهم ، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ﴾ [الكهف] ومعنى عدداً أى : سنين كثيرة ؛ لأن القليل لا يُعدُّ لأنه معروف ، فإن ذكر العدد فاعلم أنه للشئ الكثير ، كما تقول : فلان عنده مليون عدداً ونقداً .  
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تَرَبَّعَتْهُمْ لَيْعَةً أَيْ الْحَزِينَ ۝ ﴾

أَحْصَى لَعَالِئُهُمْ أَمَدًا ۝ ١٧

(١) الحزب : الجماعة من الناس فيهم قرة وصلابة يجمعهم غرض واحد ومصالح وآراء متشابهة . [ القاموس القويم - مادة : حزب ] . قال القرطبي في تفسيره ( ٥/٤٠٩ ) : « الظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظلوا ليثهم قليلاً . والحزب الثاني من أهل المدينة الذين بسط الفتية على عيهم ، حين كان عندهم التاريخ لاسر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين » .

( بَعَثْنَاهُمْ ) أى : أبقظناهم من نومهم الطويل ، وما ناموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتاً إلا أنهم لما طلقت مدة نومهم شبهها بالموت : ﴿ لَنَعْلَمَ أَى الْحَزِينِ .. ﴾ [١٢٧] ﴿ الْكَافِ أَيْ : الْفَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ : لَأَنَّهُمْ سَال بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَنْ مَدَّةِ لُبْثِهِمْ فَقَالُوا : يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . أَوْ : الْمُرَادُ الْفَرِيقَانِ مِنَ النَّاسِ الَّتَيْنِ اخْتَلَفُوا فِي تَحْدِيدِ مَدَّةِ نَوْمِهِمْ : ﴿ أَحْسَنَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [١٢٨] ﴿ الْكَافِ أَيْ : لَنَرَى أَى الْفَرِيقَيْنِ سَيَقْدِرُ مَدَّتُهُمْ تَقْدِيرًا صَاحِبًا . وَالْأَمَدُ : هِيَ الْكُدَّةُ وَعِدَّةُ السَّنِينَ .

والمعامل فى الآيات السابقة يجد فيها مكنًى خاصاً للقصة ومُرجزاً لها . وكأنها برقية سريعة بما حدث ، فاهل الكهف فتية مؤمنون فروا بدينهم إلى كهف من الكهوف ، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة ، ثم بعثهم الله ليعلم من يحصى مدة نومهم ، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطنا تفصيلاً لكل لقطات القصة ؛ لذلك تبدأ الآيات فى التفصيل فيقول تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا

بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [١٢٩]

( نَحْنُ ) أى : الحق سبحانه وتعالى ، فهو الذى يقص ما حدث بالحق ، فلو أن القاص غير الله لتوقع منه الخطأ أو النسيان ، أو ترك شيء من الأحداث لهوى فى نفسه ، إنما إن جاءك القصص من الله فهو الحق ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ﴾ [١٣٠]

إذن : هناك قصص ليس بالحسن ، وهو القصص غير الدقيق .

فالقِصَصُ القرآنيّ يضمن لك منتهى الدقة في عرض الأحداث ، ويصوّر لك كل اللقطات ، وكلمة قصة أو قِصَص تدلّ على دقة التتبع ؛ لأنها من قصص الأثر أي : تتبّعه وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصاصي الأثر ، وهم الذين يتتبعون الواقع .

و ( نَبَأُهُمُ ) النبا : هو الخير العظيم .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٢)﴾ [الكهف]

هذا هو تفصيل القصة بعد أن لخصها القرآن في المذكرة والبرقية السابقة ، وكان الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد ذكرنا في هذه القصة من قبل ، لكنها قُصّت بغير الحق ، وغير فيها ، لكنّ قِصَصنا لها هو القِصَص الحق الذي لا كذب فيه .

لحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله ، وهذه قضيتهم التي ضحّوا من أجلها ، فلما آمنوا بالله تولّاهم ونور بصائرهم وربط على قلوبهم ، وزادهم إيماناً ، كما قال في آية أخرى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [مسد]

وما أشبه هذه المسألة بالمعلم الذي يلمح إشارات النجاة والذكاء على أحد تلاميذه ، وبراء مُجيباً حريصاً على العلم فيؤليه اهتمامه ، ويمنحه المزيد من المعلومات .

ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضحّوا بكل شيء وغرّوا بدينهم ما زالوا في مرحلة الشباب ، وهو مظنة الانشغال بالدنيا والحرص على مُتعتها ، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صغرهم ليكونوا قدوة ومثلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان ، فالفتاة في أهل الكهف : فتاة إيمان وفتاة عقيدة .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا

لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝١٤﴾

والربط يعني أن تربط على الشيء وتشد عليه لتحفظ ما فيه ، كما تربط القرينة حتى لا يسيل منها الماء ، وتربط الدابة حتى لا تنقلت ، وقد وردت مائة ( ربط ) في القرآن كثيراً ، منها قوله تعالى في قصة أم موسى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ۝١٤﴾ [القصص]

أي : ربط على ما في قلبها من الإيمان بالله الذي أوحى إليها أن تلقى بولدها في الماء ، ولولا أن ربط الله على قلبها وشبّتها لانطلقت خلف ولدها تصرخ وتتعب وتلفت إليه الانتظار ﴿كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا ۝١٤﴾ [القصص]

أي : تكشف عن الخطّة التي أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام ، وهكذا اطمأن قلب أم موسى ، وأصبح فؤادها فارغاً - أي : من الانفعالات الضارة ، ومعلوم أن القلب هو محل الانفعالات ، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفق للدم عند الغضب مثلاً .

ولا يُسمّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالعشائر وتحرك بها ، وربط

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد في كل شيء ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝١٤﴾ [الكهف] . أي : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [ القاموس القويم ٢٤٩/١ ] .

الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطًا للشعور يحكم تصرفاتها  
فتأتى سليمة مُتمشيّة مع الخطّة المراءية ..

ومن هنا تأمر الغاضب الذي تغلى الدماء في عروقه بالهدوء  
وضبط النفس ؛ لأن الهدوء سيعينه على الحق ، ويكجم جماح غضبه  
الذي لا تُحمد عقباة ، ألا ترى التوجيه النبوي في حال الغضب ؟ إنه  
ينصح بتغيير الوضع الذي أنت عليه ؛ لأن هذه العملية تحدث لديك  
نزوعية ، تصرف عنك الغضب .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقْبِلْهُمْ  
هَؤُلَاءِ ﴾ [إبراهيم] أي : فارغة خالية ليس فيها شيء : لأن الشيء إذا  
فرّغته من محتواه امتلا بالهواء .

وهنا يقول الحق سبحانه في أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ..  
(١٣) ﴾ [الكهف] لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا  
تُخرجها الأحداث والشدائد ، وهذا من زيادة الهدى الذي أخبرت به  
الآية السابقة .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..  
(١٤) ﴾ [الكهف]

قاموا : القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم في  
وجهه ، وأن الباطل ألزعههم فهبوا للتصدّي له بقولهم : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف] ولا بدّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض  
قولهم ، وتعرّضوا في دعوتهم للحرب والاضطهاد ، فالآية تعطى  
صورة لفريقين : فريق الكفر الذي ينكر وجود الله أو يشرك  
به ، وفريق الإيمان الذي يُطعنها مُدوية : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [الكهف]

وَأِنْ كَانَ فَرِيقٌ مِنَ الْكَافِرِ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ فَرِيقُ  
الْإِيمَانِ يَقُولُ : ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف] فَإِنْ أَدْعَيْنَا إِلَهًا  
مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف] أَيْ : فَقَدْ تَجَارَذْنَا  
الْحَدَّ ، وَبَعْدْنَا عَنِ الصَّوَابِ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿هَكَذَا قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً  
لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ  
مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

وهنا يخبر أهل الكهف الفتيّة المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا  
من دُونِ اللَّهِ آلهة متعددة ، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة  
على صِدْقِ ما ذهبوا إليه من عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَلِهَةِ .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف] فافطع الظلم  
والبحه أن تفتري على الله الكذب ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ  
عَظِيمٌ﴾ [البقرة] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا عَزَلْتَهُمْ هُمْ وَمَا يَعْشُرُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدِعْ إِلَى  
الْكَهْفِ يَنْشُرْكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَتُهَيِّئْ لَكُمْ  
مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾



هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض : ما دُمنا امتزلنا أهل الكفر ،  
وذائنا عن طريقهم ، وسلطنا نسلنا الإيمان بالله الذي يسره الله لنا ،  
فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتسب فيه فراراً بديننا ، ومخافة أن  
يفتننا القوم عن ديننا .

ويلفتنا هنا إلى أن فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه متسع  
للحياة ، بل إلى كهف ضيق في جبل في صحراء ، وليس به مقوم  
من مقومات الحياة : لذلك ينبهنا الحق سبحانه : إياك أن تقول : إن  
الكهف ضيق ، وكيف يعيشون فيه ؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجتراء  
إليه متوكلون عليه .

لذلك قال بعدما : ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ .. ﴾ (١٦) [الكهف] فالضيق يتأمله  
البسط والسعة ، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله  
معتقدون أن الذي هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم ، وسوف  
يوسع عليهم برحمته هذا الضيق ، وقد وسَّعه الله عليهم فعلاً حين  
أنامهم ، ألا ترى النائم يربع في الدنيا هنا وهناك لا تحدُّه حدود ؟

ومن هذه السعة ما حدث في قصة نبي الله موسى - عليه وعلى  
نبيينا الصلاة والسلام - حينما تبعه فرعون بجنوده حتى قال أتباعه :  
﴿ إِنَّا لَنُدْرِكُوكَ ﴾ (٢١) [الشعراء] ، فقد ضاق عليهم الضناق حيث البحر  
من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، ولا مهرب لهم فيما يرون من واقع  
الامر . فماذا قال موسى لقومه في هذا الموقف ؟ قال يملأ فيه قولة  
الرائق من نصر الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢٢) [الشعراء]

فجاءه التأييد من ربه في التو واللحظة ، وفُرج عنه وعن أصحابه

الحكمة

AAaV

مَا يَلْقَاوْنَ مِنْ ضَيْقٍ مُخْرِجٍ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ : ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ  
الْبَحْرَ ۖ ۞ (٦٣) ﴾

كذلك هنا : ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ .. (١٦)﴾ [الكهف]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾ (٦٦) [الكهف]  
والمراد بالمرفق جمع مرافق ، وهي مقومات الحياة التي لا يستغنى  
عنها الإنسان ، فلما أناسهم الله أغفاهم عن مرافق الحياة ، لأنهم إن  
ظفروا في حال البقعة فلا بد أن يحتاجوا إلى هذه المرافق .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَقَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورًا عَنْ كُهُفِهَا ذَاتَ  
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ  
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ النَّهْجَ وَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ  
يَضِلَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سُلُوكًا مَرِيدًا ﴿١٧﴾

بعد أن ضرب الله على آذانهم فسمعهم من الأصوات التي  
تزعجهم وتقلق نومهم عصبهم أيضاً من ضوء الشمس ، وقد أثبتت  
الأبحاث خطر الأشعة خاصة على النائم ، وأن للظلمة مفعلة ، فيها  
تهدي الأعصاب وترتاح الأعضاء ، والشمس خلق من خلق الله ، لها  
مدار ثابت وقانون لا يتخلف ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ  
سَبْعُونَ ۝٦٧ ﴾ [الأنبياء]

(١) تَزَاوَرَتْ : عَالٍ وَتَنَحَّى وَانْحَرَفَ . ائى : أَنْ الشَّمْسُ تَعْمَلُ وَتَنْحَرِفُ عَنْهُمْ لَشَبَابِ تَوْدِيهِمْ . [ القاموس اللغوي ٢٩٢/١ ] .

(٢) قريش المكان : تركه وتجاوزوه . أي : تركهم الشمس وتجاوزهم جهة اليمين فلا تؤذيهم الشمس بمرعها . [ القاموس القويم ١١٣/٢ ] .

ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوءها فجعلها ( تزاور ) أى : تميل عند طلوعها عن الكهف ، ومنه الزور : أى الميل عن الحق ، وانزور من الشيء أى : مال عنه ، فكانت الشمس إذا طلعت تميل عن الكهف جهة اليمين .

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقَرَّبَهُمْ ذَاتُ الشِّمَالِ .. ﴾ [الكهف] ١٧ -  
كما هو معلوم - لن تعطى غيرك شيئاً يحتاج إليه ، فكان الشمس تقربهم وتسلطهم ، كونها لا تدخل عليهم عند غروبها ، وهذا أمر ليس من حقهم ، فكانها تقربهم إياه . ولا شك أن هذه العملية مظهر من مظاهر قدرة الله على تصنع الشيء وضده .

ونلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - جعل الفعل للشمس فى تزاور وتقربهم ، وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أن ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الأكلة اليوم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ .. ﴾ [الكهف] ١٧ : فى الكهف  
﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. ﴾ [الكهف] ١٧ وما دامت هذه الأفعال للشمس آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته تعالى ، فإياك أن تعترض : كيف تميل الشمس ؟ وكيف تُغيّر اتجاهها ؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخلق ، وأعطى لكل مخلوق قانونه الذى يسير به ، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أن يفعل بقانونه ما يريد ، بل له سبحانه وتعالى هيومية على القانون ، تبطله إن شاء ، وتحركه إن شاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف] ١٧

فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال تدور هذه المعركة موجودة إلى الآن ، فهناك ناشئاً عن يقول : إنا كلنا لله هو الهادي والمُضِل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟

وشاع هذا السؤال وأخذ المستشرقون والفلاسفة ، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لم تذكر الثواب إن أحسنت وأمنت ؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

والهداية نوعان : هداية دلالة ، وهي للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدل للمؤمن فقط ، بل يدل للمؤمن والكافر على الإيمان به ، فمن يقبل على الإيمان به ، فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيأخذ بيده ويعينه ، ويجعل الإيمان حقيقاً على قلبه ، ويعطى له طاقة لفعل الخير ، ويشرح له صدره ويسر له أمره .

فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية ، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بين أن من شاء هدايته يهتدي ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدي ، وكذلك الظالم والفاسق ، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ  
وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ  
عَلَيْهِمْ لَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۖ ﴾ (١٨)

أي : لو أتبع لك النظر إليهم لخيّل إليك أنهم أيقاظ غير نائمين  
ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيتها ، ثم  
أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأن يُقَلِّبُهُمْ فِي نَوْمِهِمْ مَرَّةً نَاحِيَةَ  
الْيَمِينِ ، وَأُخْرَى نَاحِيَةَ الشِّمَالِ ، لَتُظَلَّ أجسامهم على حالها ، لا تأكلها  
الأرض .

ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّرَ له أن ينام فترة طويلة على سرير  
المرض يُصَابُ بمرض آخر يُسمونه قرحة الفراش ، نتيجة لتومه  
المستمر على جانب واحد - عافانا الله وإياكم - وقد جعل لهم هذا  
التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ .

وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۖ ﴾ (١٨) [الكهف] ويبدو  
أنهم كانوا من الرعاة ، فتبعهم كلبهم وجلس مائداً ذراعَيْهِ بِفَنَاءِ  
الْكَهْفِ أو على بابهِ ﴿ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ  
رُغْبًا ۖ ﴾ [الكهف] فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم في نفوس

(١) قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل عام  
تقليبتان . وقيل : في كل سنة مرة . وقال مجاهد : في كل سبع سنين مرة . وقالت  
فرقة : إنما قُلِّبُوا فِي التَّسْعِ الْآخِرِ ، وأما في التَّكْمِيلَةِ فلا . وهذا كلام المفسرين أن  
التقليب كان من فعل الله . [ تفسير القرطبي ٤/٤٦٠ ] .

(٢) الوصيد : فناء الكهف أو عتبه . [ القاموس المبرور ٢/٢٣٩ ] .

الناس ، فإذا ما أطلع عليهم إنسان خاف وولى هارباً يملؤه الخوف ؛ لأن هيبته توحى بذلك . حيث يتقلبون يميناً وشمالاً ، ومع ذلك لا يصحرو منهم أحد . ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنِسَاءِ لُؤَيَيْنِهِمْ قَالَ قَائِلٌ  
مِنْهُمْ لَيْسَ لَنَا بِإِنْسَاءٍ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا  
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ فَا بَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ<sup>(١)</sup>  
هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ  
بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١١﴾

قوله : ( بَعَثْنَاهُمْ ) أى : أَيْقَنْظَنَاهُمْ مِنْ نَوْمِهِمْ : لِأَن نَوْمَهُم الطَوِيلُ  
الَّذِى اسْتَفْرَقَ ثَلَاثُمِائَةَ سَنَةً وَتِسْعًا كَشِبَهُ الْمَوْتُ ، فَقَالَ ( بَعَثْنَاهُمْ ) -  
وَالْبَعْثُ هُنَا لِقَضِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ ، وَهِيَ أَنَّ يَمِيلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ  
مُدَّةِ لُبْنِهِمْ فِي الْكَهْفِ ، وَقَدْ انْقَسَمُوا فِي سَوَالِهِمْ هَذَا إِلَى فَرِيقَيْنِ  
الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ نَبُشُّ ۖ ۝ (١٦) ﴾ [الْكَهْف]

فَرَدَ الْفَرِيقَ الْآخَرَ بِمَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ فِي النَّوْمِ الْعَادِيِّ ،  
فَقَالَ : ﴿ قَالُوا لَيْسَ بِيَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ . . ﴾ (١٩) [الكهف] فالإنسان  
لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط ، لكن المعتاد في النوم أن يكون  
كذلك يوماً أو بعض يوم .

(١) التَّبَيُّقُ : التَّراهُمُ المَضْرُوبَةُ - وَالْوَبَقُ : يَكْسِرُ الرِّاءَ : الْفَضْلَةُ . [ لِسَانُ الْعَرَبِ - هَاجَةُ : وَبَقَ ] -

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذراتهم شيئاً يدلُّ على مرور زمن طويل ، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها ، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة ، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض ؛ لذلك قالوا : لبتنا يوماً أو بعض يوم ، ولو وجدوا أنفسهم شيئاً لقدروا الزمن المناسب لهذا الغيب .

وهذه رقعة المشدود حين يُسأل عن زمن لا يدري مدته ، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده ، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ ﴾ (٢٥٩) [البقرة]

لقد حكم على مدة لبثه بيوم أو بعض يوم ؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدا لم يتغير منه شيء . فكيف يثنى الصديق من الحق سبحانه في قوله ( مائة عام ) والصديق في قول العزيز بيوم أو بعض يوم ؟

لا شك أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان وللعكان ، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم ، الباسط له إلى مائة عام .

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق

(١) سنك الطعام يست : تغير بعد مضي زمن عليه . وتسنه الطعام : تغير . [ القاموس القديم

القولين : ففي طعام العزير الذي خُلَّ على حساله طازجاً لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم ، وفي حساره الذي رآه عظاماً بالية دليل على المائة عام ، فسيحان الله الذي يجمع الشيء وضده في آن واحد .

ثم يقول تعالى حكاية عنهم : ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا نَبِيُّهُمْ ﴾ (١٩) [الكهف] وهو قول الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف في هذه المسألة ، فقالوا لإخوانهم : دعونا من هذه القضية التي لا تفيد ، واتركوا أمرها لله تعالى . ودائماً يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شيء لا تنتهي فيه إلى شيء ، ونُحوله للأمر المثمر النافع ؛ لذلك قالوا :

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْكُمْ بِرِزْقِ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٨) ﴿٤﴾

والورق يعنى العملة من الفضة ، فأرادوا أن يرسلوا أحدهم بها معهم من النقود ليشتري لهم من المدينة طعاماً ؛ لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية ، وعادوا إلى طبيعتهم ؛ لذلك طلبوا الطعام ، لكن نلاحظ هنا أن الجوع لم يصلهم على طلب مطلق الطعام ، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أطيبه وأظفهره ، وأبعده عن الحرام .

وَكذلك لم يَقْتُصِرْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ قَوْمِهِمْ ، فَمَنْ سِيْذِهِبَ مِنْهُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَهْمَةِ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ خُلُصَةً ، وَأَنْ يَتَلَطَّفَ فِي الْأَمْرِ حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْتَيْقِظُوا عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي نَامُوا عَلَيْهَا ، وَمَا زَالُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ قَوْمِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ وَيَبْحَثُونَ عَنْهُمْ ، وَيَسْعَرُونَ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ .



ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا ۝٢٠﴾

ومنا احتياط منهم للدين ، وحماية للعقيدة التي فُروا بها . فإن يرجعوك فسينتصرون عليكم في الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة .  
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْتُمْ أُفْعَلُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾

في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا .. (٢١)﴾ [الكهف] يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت ، فما أنتم ما زلتم على قيد الحياة وفي سعة الدنيا ، ومع ذلك أناكم الله هذه الثومة الطويلة ثم بعثكم ، وقد عثر عليهم ، وما زالت فيهم حياة .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ ۝٢١﴾ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

(١) أمروه على الأمر : أظلمه عليه . قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ .. (٢١)﴾ [الكهف] . أي : جعلنا الناس يظنون عليهم ويعرفون كهفهم وقصبتهم . [ القاموس القويم ٧/٢ ] .  
(٢) قال حكومة : كل من منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حياة ودلالة وآية على ذلك . وذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة . ( تفسير ابن كثير ٧٧/٣ ) .

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .. ﴿٢١﴾ [الكهف] حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم ، ويبدو أنهم كانوا على مشقة من الدين ، فأرادوا أن يحافظوا على هذه الآية الإلهية ، ويصحح أنهم بمجرد أن عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا .

وهذه مسألة يجب أن يُدرَّج لها ، وأن تتخذ : لذلك جعلوها مثلاً شرّوفاً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الغبية الذين ضلّوا في سبيل عقيدتهم وفُتروا بدينهم من سعة الحياة إلى ضيق الكهف : ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة ، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويخلد ذكراهم إلى قيام الساعة .

لذلك قال بعضهم لبعض : ﴿ابنوا عليهم بنياناً .. ﴿٢١﴾﴾ [الكهف] أى : مطلق البنيان ، لعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف] ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العنيفة الخالدة .

ثم تحدث الحق سبحانه عن الاختلافات التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف ، وما يتعلق بهم من تفصيلات هي في حقيقتها ظم لا ينفع وجهل لا يضر ، فقال تعالى :

(١) حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين : أحدهما : إنهم المسلمون منهم . والثاني : أهل الشرف منهم . قال ابن كثير في تفسيره ( ٧٨/٢ ) : « الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفور » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره ( ٤١٠/٥ ) : « تنشأ منا مسائل مستورة وجائزة ، فاختاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز . روى المسيحيان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكروا كنيسة رأيتها بالحبيشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار المخلوق عند الله تعالى يوم القيامة » . لفظ مسلم .